فلسطين بين الشمس والضباب في ذكرى معركة الفرقان

محمد فايز

بالأمس وقف شاعر الميزاب بمنطقة غرداية أيام الاستعمار الفرسي للجزائر الشيخ رمضان حمود رحمه الله باكيا بقوله :

بكيت ومثلي لا يحق له البكاء على أمة مخلوقة للنوازل

هي النوازل فعلا التي عصفت بهذه الأمة منذ نهاية حرب أكتوبر 1973م من تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، بدخول العالم العربي مسارا جديدا في تاريخ الشعوب المناهضة للاحتلال أطلق عليه اسم السياسة الواقعية وتدشين الرئيس المصري الراحل أنور السادات منطق التسوية مع إسرائيل حين وقع معاهدة كامب ديفيد في سنة 1978 م المبنية على مبدأ الأرض مقابل السلام دون أن يوضحوا لنا عن أي ارض يتحدثون مقابل أي سلام يريدون , تلك المعاهدة كانت بمثابة تفتيت لأسس التفكير العربي والإسلامي الرافض للظلم والقهر والهيمنة, حيث أصبحت إسرائيل في نظر البعض أمرا واقعا ينبغي الاعتراف بوجوده لضمان حقوق الشعب الفلسطيني, في حين نجحت إسرائيل في تحقيق أهدافا إستراتيجية هامة منها :

إخراج مصر بثقلها السكاني ودورها الحضاري و موقعها الاستراتيجي من دائرة الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

اختراق مرحلي لجبهة المقاطعة الاقتصادية العربية عن طريق الملحق الاقتصادي للمعاهدة .

إحداث انقسام عربي هام في منطقة الشرق الأوسط .

إقامة جدل سياسي وفكري عقيم بين أولوية المقاومة والتنمية في المنطقة.

فقدان دعم معنوي ومادي ورصيد بشري هائل من مصر للمقاومة الفلسطينية.

انكفاء مصر على مصالحها القومية والتفريط في قضايا الأمة العربية والإسلامية.

ظهور تيار فكري في المنطقة العربية يؤمن بإستراتجية الصلح مع إسرائيل .

ولم تستطيع الجامعة العربية العاجزة أصلا أن تقدم شيئا لفلسطين رغم رحلتها الغاضبة إلى تونس ثم عودتها المهونة إلى القاهرة بعد انهيار المعسكر الاشتراكي و أفول منظمة دول عدم الانحياز لتجد نفسها في غرفة العمليات أمام الجراح الأمريكي والدة بطريقة غير شرعية مولودا سمي في قمة بيروت 2002م مشروع السلام كخيار استراتيجي مع إسرائيل بعد زهاء 10 سنوات من المفاوضات والاتفاقات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ,ابتدءا من قمة أوسلو سنة 1992 م لم يحصد منها الفلسطينيون سوى الهزائم والانكسارات والانقسام السياسي والاجتماعي والتيه

في مسارات عبثية ظنا منهم أن المجتمع الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية قادر على إخضاع إسرائيل لمطالبهم المشروعة .

لكن المجتمع الفلسطيني قبل ذلك كان حاملا بمولود أخر يعتمد على قدراته الذاتية و التوكل على الله تعالى هي حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وفق مبدأ أن حركة التحرر من الظلم والاحتلال تحتاج إلى الثمن والضريبة تماما كما دفعتها الثورة التحريرية الجزائرية المباركة وكل الشعوب المكافحة من أجل الحرية والاستقلال فاشتعلت انتفاضة سنة 1987م ثم انتفاضة الأقصى المبارك سنة 2005م مع تطور نوعي من الحجارة مرورا بالعمليات الاستشهادية إلى عملية إطلاق الصواريخ , واستطاعت تلك العصبة أن تعيد النظر لدى كثير من المراقبين والباحثين والمفكرين في قراءاتهم ودراساتهم حول طبيعة الجنين وبنيته الفسيولوجية ومستقبل نموه السياسي والاجتماعي و مدى قدرة الأمة على احتضانه ورعايته في ظل التعاكس الفيزيائي مع القرار الرسمي العربي, وبمشروع متناغم في استراتيجيه وعلاقاته وبنائه الفكري والعقائدي مع الثورة الفلسطينية الأولى التي اندلعت في الستينات من القرن لعشرين, وبذلك انقسم العالم العربي إلى مسارين متناقضين : مسار التطبيع ومسار المقاومة .

المفاجئة كانت فوز التيار الإسلامي (حماس) في 25/01/2006 م بالانتخابات الفلسطينية الذي أخلط كل الأوراق المبرمجة من طرف صعاليك السياسة الدولية وقيادات الإجرام العالمي وان التوقيع على الحل النهائي بات أمرا شبه مستحيل, فكان جزاء قطاع غزة هاشم هو التعرض إلى سلسلة من الضغوط بداية من الحصار الاقتصادي والسياسي ثم إحداث الفلتان الأمني وفقدان السلم الاجتماعي إلى الحرب بنوازل الفسفور الأبيض الذي انهمر على سكان القطاع تاركا ضحاياه بأكثر من 1400 شهيد و أكثر من 5300 جريح و منكوب وإهلاك الحرث والنسل وتهديم المساجد والبنية التحتية والمباني الحكومية خلال 22 يوما من شهر يناير 2009 م بحثا عن مناخ اجتماعي وسياسي جديد يدفع بعملية التسوية في منطقة الشرق الأوسط نحو الانبعاث والانفراج, وصمد أبناء القطاع صمودا أسطوريا حير العقول والألباب ولم تستطيع القوة الغاشمة أن تجتاز تيلومترا واحدا داخل القطاع بفضل الله تعالى ثم بمقاومة باسلة , وتحرك العالم بأسره لمؤازرة الشعب المحاصر في حين بقيت الجامعة العربية تبحث عن مكان القمة أين تنعقد هل في الدوحة أم في الكويت ، وانتهت الحرب المسعورة دون سقوط القلاع ولا تغيير في منطق الصراع الحقيقي, لكن الأمر الأخطر من ذلك حينما تقرر القيادة المصرية التي تدعي القيادة العربية قبل الحرب وبعدها إغلاق معبر رفح الذي يفصل الشعبين المصري والفلسطيني متذرعة بحجة القانون الدولي المنظم لاتفاقيات المعابر وتضيف في شهر ديسمبر 2009 م إقامة الجدار الفولاذي وفق روايتها لمنع التهريب وإحكام السيطرة على عملية المرور من والى قطاع غزة للحفاظ على الأمن القومي المصري المزعوم, والحرب كما يقال هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى, فالضغوط المذكورة أنفا تهدف إلى تحقيق إلى أربع نقاط أساسية :

تقديم تنازلات هامة على رأسها الاعتراف لإسرائيل بالوجود

إيقاف المقاومة الشعبية وإنهاء مشروع التحرر الوطني.

الاعتراف بالاتفاقات المبرمة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية .

ضرب القوى المناهضة لمشروع عملية التطبيع مع إسرائيل .

إن مقاومة الاحتلال هي مشروع إبداعي يعمل على إطلاق القدرات والمواهب وتنويع التكتيكات و يستخرج أقصى ما يمكن من النتائج بالوسائل المتاحة وقد رأينا كيف تطورت الانتفاضة من الحجارة إلى العمليات الاستشهادية ثم الصواريخ البدائية لتثير الرعب والخوف في نفسية المحتل, و كيف واجه أبناء القطاع الحصار الجائر بصناعة الأنفاق لتأمين لقمة العيش , بل المقاومة هي الحرية الساخنة التي تنصهر فيها الشجاعة والقيادة والبذل والعطاء والتضحية ,وهي الشمس التي تتوهج بدرجة حرارة عالية لتنبعث منها صورة الحق وجمال الحرية وزينة حب الأوطان وعشق المعالي واستبداد الطموح الذي تغنى به الشعراء والأدباء وسالت من أجله أقلام العلماء والمفكرين. بينما التسوية هي انتحار سياسي واجتماعي يغرس الذل والخنوع ويترك أصحابه لا يتحركون إلا في حدود الدائرة المرسومة لهم وقد تحول بعضهم إلى جواسيس وعملاء للاحتلال في مشروع دايتون, ويتغنى آخرون ببرامج سياسية نافهة, وهو مشروع الضباب الذي يرفع نسبة الرطوبة ويحجب الرؤية ويمنع إقلاع الطائرات والملاحة البحرية في غياب النور وغدير المياه الذي يحتاجه الناس في الحر والبر. بل التسوية هي مرض نفسي من أمراض انفصام الشخصية ظاهرها الواقعية وباطنها الذل والعار, وإذا كان الاختلال في ميزان القوى ووجود تحالف دولي مساند للاحتلال الإسرائيلي هو المنطق الذي يعتمد عليه فلاسفة التسوية، فما هي التجربة التاريخية المماثلة التي مارستها الشعوب لخوض معركة التحرر والاستقلال وفق هذه الرؤية ؟ هل من المعقول أن يكرر دعاة التطبيع بعد هذه الجرائم الإنسانية عملية التفاوض ودهاليز التسوية العمياء ؟

يقول كارل مارنس : " إذا قرر التاريخ تجربتين متتاليتين فاشلتين فالأولى مأساة أو تراجيديا بينما الثانية مهزلة أو مسخرة ", وإذا كان البعض يقيم المقاومة من خلال الخسائر البشرية والمادية فان المقاومة قد خلقت واقعا جديدا متمثلا في كسر الخوف من الاحتلال وحلفائه المجرمين بل إظهار نقاط الضعف فيهم , وظهور أحرار العالم, وكشف عوامل القوة في الأمة ,وخيبة الأمل في صناع القرار وخور الأنظمة الرسمية , واستشراف زوال الاحتلال وتحرير فلسطين والمسجد الأقصى المبارك , ورسم موازين حركة الحياة مصداقا لفقيه العصر العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله في أبياته الجميلة :

قلت الحياة هي التحرك ... لا السكون و الهمود
وهي التفاعل والتطور ... لا التحجر والجمود
وهي الجهاد وهل يجاهد ... من تعلق بالقعود
وهي الشعور بالانتصار ... ولا انتصار بلا جهود
وهي التلذذ بالمتاعب ... لا التلذذ بالرقود
هي أن تدود عن الحياض ... و أي حر لا يدود
هي أن تحس بأن كأس ... الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في ... الأرض شأنك أن تسود
و تقول لا و بملء فيك ... لكل جبار عنيد
هذي الحياة و شأنها ... من عهد أدم والجدود
فإذا ركنت إلى السكون ... فلذ بسكان اللحود

ولاة الأرض

هو من يبتدئ الخلق وهم من يخلقون الخاتمات !هو يعفو عن خطايانا وهم لا يغفرون الحسنات ! هو يعطينا الحياة دون إذلال وهم، إن فاتنا القتل، يمنون علينا بالوفاة ! شرط أن يكتب عزرائيل إقراراً بقبض الروح بالشكل الذي يشفي غليل السلطات** !

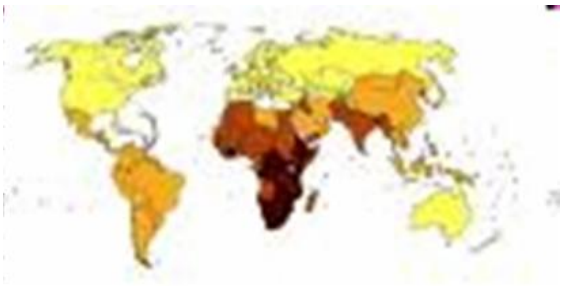

هم يجيئون بتفويض إلهي وإن نحن ذهبنا لنصلي للذي فوضهم فاضت علينا الطلقات واستفاضت قوة الأمن بتفتيش الرئات عن دعاء خائن مختبئ في ا لسكرا ت و بر فع ا لبصما ت عن أمانينا وطارت عشرات الطائرات لاعتقال الصلوات ** !

ربنا قال بأن الأرض ميراث ا لتقا ة فاتقينا وعملنا الصالحات والذين انغمسوا في الموبقات سرقوا ميراثنا منا ولم يبقوا لنا منه سوى المعتقلات ** !

طفح الليل ..وماذا غير نور الفجر بعد الظلمات؟ حين يأتي فجرنا عما قريب يا طغاة يتمنى منكم خيركم لو أنه كان حصاة أو غبارا في الفلاة أو بقايا بعرة في أست شاة .هيئوا كشف أمانيكم من الآن فإن الفجر آت

.أظننتم، ساعة السطو على الميراث، أن الحق مات؟

!لم يمت بل هو آت!!